الجوع

رواية

تأليف
مانويل موخيكا لاينز
ترجمة : تزيه الحكيم

(*) « مانويل موخيكا لاينز » (المولود عام ١٩١٠) أحد كبار كتاب القصة المعاصرة في الأرجنتين . وأشهر مجموعاته : « هنا عاشوا » و « بهنس آيرس المجهولة » . وأكثر قصصه تاريخية ، منها هذه التي تروى فصلا من الغزو الاسباني للأرجنتين يوم كانت موطنا للهنود .

نيران الهنود ، من حول السياج الذى ينتهى اليه المرتفع ، قبالة النهر ، تلتمع ليل نهـــار ، وفى الظلام من غير نجوم تبث مزيدا من الرهبة . أما الاسبانيون ، المتمركزون فى حذر بين الجذوع فيرون على ضـــوء النيران التى تنثرها الريح المجنونة ظلال المتوحشين الدائمة الحركة وبين الحين والحين تتسرب الى أكواخ الطين نسمة من الهواء لاسعة البرد ، تحمل معها أناشـــيد الحرب وصيحاتها فلا يلبث أن يتجـــدد بعدها تساقط السهام المحرقة ، التى تضىء بمـــرورها الخاطف عرى المشهد . أما فى فترات الهدنة ، فان آهات القائد الذى لا يغادر فراشه تزيد الغزاة رعبا ، فيتمنون لو استطاعوا الخلاص منه ، لو استطاعوا نقله بمقعـــده ، وهو كالمعتوه ينتضى رمحـه ، الى المراكب المهتزة بعيدا وراء الشاطىء المتعرج ، ولو استطاعوا نشر الأشرعة والهرب بأنفسهم من هذه الأرض الملعونة ؛ ولكن حصار الهنود لهم يمنعهم من ذلك . فان لم تكن صيحات المحاصرين ولا آهات « مندوسا » فهى توسلات أولئك الذين أرمضهم الجوع ، والذين تتزايد شكواهم كمياه المد ، من تحت الأصوات الأخرى ، من تحت المطلقات والســـهام الطـائرة وتداعى البيوت المحترقة .

هكذا مرت أيام عديدة ، أيام كثيرة . لم يعودوا الآن يعدونها . واليوم لم تبق كسرة خبـــز . ذهب كل ما يمكن أن يتقاسم ، او ينتزع ، أو يمضغ : حصص التموين الهزيلة أولا ، ثم الدقيق العفن ،

والجـــرذان ، والزواحف الصـغيرة القذرة ، والأخذية المغلية التى التهموا جلودها فى هذيان . الآن تساوى القادة والجنود ، يرقدون فى أى مكان ، قريبا من النار الناصـلة أو الأوتاد المنصوبة للدفاع . وأصبح عسيرا تمييز الموتى من الأحياء .

ويرفض « دون بدرو » أن يرى عينيه المتورمتين وشفتيه كثمرة التين الجافة ، ولكن فى داخل كوخه الحقير يتابعه شبح تلك الوجوه وقد تخلت عنها أجسامها ، تزحف فى سخريةباكية فوق قطع الأثاث الفخمة التى أتى بها من « قادس » ، وتكاد تلتصق بالسجادة الضخمة التى رسم عليها شعار (رهبانية سنيتاغو) ، ويراها على الموائـد ، بين الأطباق التى خلت من الطعـــام فكشفت فى قعرها اللماع عن شعار مؤسس الأسرة المالكة .

ويتلوى المريض كأن به مســـا من الشيطان . ويده اليمنى ، التى أحاطت بها سبحة من خشب ، تتعلق بشرافات السرير ، يشدها فى حنق ، كما لو كان يود اقتلاع سقفه الأرجوانى ودفن نفسه تحت رسومه المطرزة . ولكن ذلك لن ينجيه من آهات الجنود ، ولن يبعد عنه ذكرى صوت « أوسوريو » ، الذى تركهم يقتلونه على شـــاطىء « جانيرو » ، أو صوت أخيه « دون دييفو » الذى ذبحه الهنود ، ولا الأصوات الأخـرى الأكثر بعدا ، أصوات أولئك الذين قادهم الى نهب روما ، يوم اضطر البابا أن يلجأ مع كبار رهبانه الى حصن « سان انجيلو » بل لا حاجة به أن ينظر من النافذة ليذكر أن فى الساحة قريبا منه ، فى قلب الواقع الحى ، جثث ثلاثة من الاسبانيين أمر بحرقهم لأنهم سرقوا حصانا وأكلوه . انه يتصـورهم مقطعى الأوصال ، لأنه يعرف أن رفاقا آخرين لهم قـد نهشوا عضلاتهم .

متى يعودون ، أولئك الذين ذهبوا الى البرازيل ليأتوا بالأغذية ؟ متى ينتهى هذا العذاب ويرحلون الى أراضى المعدن واللؤلؤ ؟ متى ؟ ..

وآخر أيضـــا يهيم بالخيـال . انه « بايتوس » صـانع أقواس الرماية . يقبـع فى زاوية من دكانه ، على الأرض العارية ، ويفكر أن القـــائد وضباطه ينعمون بالموائد الغنيـة بينما هو يقتله الجوع الذى يمزق أحشاءه . واذ ذاك يغدو حقـده على رؤسائه أشد لهبا ؛ ويدعمه هذا الحقد ، يغذيه ، يمنعه من أن يستسلم للموت . انه حقـد قـد لا يبرره شىء ، ولكنه فى حياته الخالية من الايمان يزوده بالحافز العنيف . لقد كان فى « مورون » يكره سيده ؛ فاذا هـــو جاء الى أمريكا فلأنه حسب أن سيغتنى فيها الجميع ، سادة وأتباعا ، ثم لا توجد بينهم فوارق لشد ما ضل به الحساب ! ان اسبانيا لم ترسل الى الهند الجديدة (١) جيشا يضم عددا من الاشراف كهذا الجيش . كلهم «دوقات» ! وعلى سطح المركب وفى غرفـــة كانوا يتحدثون كما لو كانوا فى القصور : لقد كان « بايتوس » يرقبهم بعينيـــــه الصغيرتين وقد أغلقهما نصف اغلاقة ، فلم يكن بينهم لديه من يستحق بعض

(١) هكذا كانوا يسمون القارة الأمريكية .

الاحترام الا « خوان أوسوريو » ، ذلك الذى قتلوه فى « جانيرو » . قتله السادة حسدا ومخافة . . ما أشد ما يكرههم ، بتقاليدهم ومظاهرهم ! كما لو أنهم ولدوا جميعا على طريقة واحدة ! بل انه ليزداد نقمة عليهم حين يحاولون التلطف ويتحدثون الى البحارة كما لو كانوا فى مستواهم . كذابون ، كذابون ! انه ليكاد يشعر بالغبطة للكارثة التى نزلت بالحملة فكانت ضربة قاصمة لأطماع هؤلاء الأمراء المزيفين .

الجوع يدفع الغيوم الى دماغه ويجعله يهذى . الجوع ! الجوع ! لو يستطيع ان يعض بأسنانه قطعة من لحم ! ولكن اين اللحم ؟ اليوم بالذات ، مع شقيقه « فرنسيسكو » يستند أحدهما الى ذراع الآخر ، جاس المعسكر كله : لم يبق فيه ما يسرق . عبثا عرض أخوه على الآخرين أن يبادلوه قنفذه ، أو أفعى ، أو جلدا ، أو أية لقمة ، بالجوهرة الوحيدة التى يمتلكها : ذلك الخاتم الفضى الذى أعطته اياه أمه يوم أبحر من « سان لوكار » . وما كان بواجد شيئا حتى لو قدم جبلا من ذهب ، لأنه لم يعد هناك من شىء . لم يعد هناك الا أن يشد على بطنه الذى تخزه الآلام وأن ينطوى على نفسه راعشا فى زاوية الدكان .

ولكن الريح تحمل رائحة الجثث المحروقة . ويفتح « بايتوس » عينيه ويمر بلسانه على شفتيه المحروقتين . الجثث المحروقة ! هذه الليلة دور أخيه فى الحراسة فى موضع القنيصة . ولا ريب أنه الآن هناك ، مع قوسه . لم لا يزحف اليه ؟ لعلهما معا يستطيعان ان ينزلا احدى الجثث . وحينئذ . .

وحمل سكينه العريض وخرج يتهادى .

هى ليلة ظالمة البرد من ليالى « يونيو » (١) . القمر الشاحب يلقى نوره الهزيل على الأكواخ والنيران المتفرقة . ويكاد المرء ان يأمل السلام

مع الهنود بعد ساعات ، فهم الآخرون جياع ، وقد تضاءلت حدة هجمتهم . و « بايتوس » يبحث عن طريقه فى الظلام ، بين الشجيرات ، باتجاه المشانق وتتراءى له ، كثلاثة رقاصات بشعة ،

---

(١) حيث فصل الشتاء . فى النصف الجنوبى من الكرة .

الجثث الثلاث المعلقة المهشمة . معلقة بلا اذرعة ، بلا اقدام . خطوات اخرى ويبلغها . ولابد أن أخاه يتجول قريبا منه . خطوات اخرى ..

ولكن ، فجاة ، تبرز من الليل أربعة أشباح ، تقترب من احدى المشانق . ويشعر صانع الأقواس بغضبته تتيقظ ، يهيجها قدوم هؤلاء فى وقت غير مناسب الآن يراهم . انهم أربعة من النبلاء ، أربعة من القادة : « دون فرنسيسكو دو مندوسا » ، و « دون دييفو باربا » ، و « كارلوس دو بران » ، و « برناردو سانتوريون » .

ويختفى «بايتوس» بنفسه وراء أحد المتاريس ، يؤجج غيظه أن يراهم ـ حتى فى هذه اللحظات التى يخيم فيها الموت على الجميع ـ لم يفقدوا شيئا من زهوهم وكبريائهم . هكذا ، على الأقل ، يراهم فى الظلمة . فهذا ، مثلا ، « دييفو باربا » فارس سان خوان ، ما يزال يحمل كل أسلحته ، ومعها الصليب الأبيض الثمانى مفتوحا كالزهرة على جانبه الأيسر ، بينما الايطالى « سانتوريون » يحمل فوق درعه الوشاح الفرو الذى يزيده غطرسة .

انه يكره « برناردو سانتوريون » هذا اكثر من الجميع . لقد بدأت كراهيته له منذ أبحروا من «سان لوكار» ، وظلت فى تزايد طوال الرحلة ، لكثرة ما رواه له عنه الجنود الآخرون . فهو يعرف الآن عنه انه كان ضابطا صغيرا لدى الأمير « دوريا » ، وانه قاتل تحت امرته فى نابولى واليونان ، وأن العبيد الأتراك المربوطين بالمجاديف كانوا يتلوون تحت سياطه . ويعرف أيضا أن القائد « الأميرال » قد أعطاه هذا الوشاح الفرو فى نفس اليوم الذى أنعم فيه عليه الامبراطور بوسام كبير . ولكن هذا كله لا يبرر هذه المنجهية . لو رأيته وهو على ظهر المركب لظننت ان الأمير « اندريا دوريا » كان هو القادم الى أمريكا . ان له فى التخطر برأسه الأسمر شبه الأفريقى ، وفى الكشف عن الأقراط الذهب المعلقة على الفرو طريقة تدفع « بايتوس » الى أن يصر بأسنانه ويشد على قبضته ..

ويتسامر النبلاء على ضوء اللهب . وتلتمع خواتمهم ، حين يحركونها بكبرياء رجال البلاط . ومن ورائهم الجثث الثلاث المعلقة تدور بين أصابع الريح . والجوع والحنق يخنقان صانع الأقواس يود لو يصرخ ، ولكنه لا يستطيع ، ويسقط فى صمت مغمى عليه فوق العشب المتفرق .

وحين استرد وعيه ، كان القمر قد اختفى والنار تكاد لا ترف ، موشكة على الانطفاء . وكانت الريح قد هدأت فتضاءل ما يسمع من صراخ الهنود . ونهض « بايتوس » فى عناء ونظر فى اتجاه المشانق ، فكاد لا يتبين الجثث ، وكأنما أحاط بها كلها ضباب خفيف . وتحرك شخص ما ، جد قريب منه ، فحبس انفاسه ، فاذا بفرو « برناردو سانتوريون » يبرز ، رائعا ، على ضوء الجمرات الأحمر . أما الآخرون فكانوا قد انصرفوا . وأنعم « بايتوس » نظره

فى الظلمة : لا أحـــد . لا شـقيقه ، ولا حتى الراهب «رودريفو دو سيبيدا» الذى كان من عادته أن يقوم بجولة فى مثل هذه الساعة ، ومعه كتاب الصلاة .

وتقـــدم « برناردو سانتوريون » فوقف بين « بايتوس » وبين الجثث : « برناردو سانتوريون » وحده ، لأن القسس بعيدون . وعلى بضعة أمتار تهتز الأجساد المنسولة الأطراف . وهو يعذبه الجوع عذابا يدرك أنه ان لم يهدىء منه على الفور فلابد أن يجن . وعض « بايتوس » ذراعه الى أن استشعر على لسانه دفء الدم .. لكان يلتهم نفسه ، لو اســـتطاع . لكان يأكل ذراعه .. والأجساد الثلاثة الشاحبة معلقة تهتز ، فى اغراء مفزع ... ليت هـذا الايطالى يخلى الســاحة ، ليته يغرب عنه مرة واحدة .. مرة واحدة .. الى الأبد .. وفى الحق ، لم لا ؟ لم لا يهتبل الفرصة التى بين يديه ويزيحـــه من طريقه الى الأبد ؟ ان أحدا لن يعرف . هى قفزة ، وبعدها يغوص سكين القنص العريض فى ظهر الايطالى . ولكن هل فى طاقته ، هو المنهوك القوى ، أن يقفز ؟ لو كان فى بلده لكان واثقا بمهارته وبقدرته ... لو فى بلده ..

لا ، لم تكن قفزة . كانت اندفاعة الى أمام ، خفيضة متوازنة ، كما يفعل كلب الصيد . واضطر أن يرفع المقبض بكلتى يديه لـكى يغمس النصل ، فما أسرع ما اختفى فى نعومة الفرو ! لكأنما انسرب وحده الى الداخل ، باتجاه القلب ، فى لحم هـذا الحيوان الكاسر الذى حظى أخيرا بصيده ! وهوى الحيوان فى صرخة مكتومة ، يرتجف فى تشنجه ، وسقط هو فوقه ، واستشعر على وجهه ، على جبينه وعلى أنفه وعلى خديه ، دغدغة الفرو . وانتزع السكين وأعاد ضربته مرتين ، ثم ثالثة . انه فى هذيانه لا يعرف هل هو قد قتل ضابط الأمير « دوريا » أم واحدا من تلك السباع التى ما تألوا تدور حول المعســكر . حتى هدأت كل رعشة . وحينئذ مد يده الى ما تحت الوشاح فعثر بذراع الرجل ، فكشط هذا الذراع بالســكين وأعمل فيه نهشا بأسنانه التى شحذها الجوع . لم يفكر فى وحشية ما يفعل ، بل فى أن يعض ، أن يشبع جوعه . وحينئـــذ ، حينئذ فقـــط ، رأى على نور الجمر الأحمر ، بعيدا ، جد بعيـــد ، جسد الضابط الايطالى صريعا الى جانب السياج ، وقد زرع سهم بين عينيه الزجاجيتين . وتعثرت أسنان « بايتوس » بخاتم أمه الفضى ومال فرأى وجه أخيه ، تحت ذلك الوشاح الذى كان سرقه من الضابط بعد موته ليتدثر به .

ويطلق صانع الأقواس آهـــة غير انسانية . وكالسكران يصطدم بالسياج المبنى من جذوع الشجر ، ويأخذ يعدو نحو الوهـــدة ، باتجاه نيران الهنود . وتجحظ عيناه ، تخرجان من محجريهما وكأن ذراع أخيه المشوه يســد حلقومه ويفجره .